-- مدخل عام حول: مفهوم النظام الاجتماعي العام ومشكلته:

1- مفهوم النظام الاجتماعي العام:

- يشير إلى الترتيب المنظم، كما يشير إلى التتابع المستمر المنظم، أو العلاقات المتناغمة.

- يشير إلى نسق من الأشياء المادية، مثل الكتب المصطفة في المكتبة، أو نسق من الآراء والأفكار: مثلا ترتيب رؤوس الموضوعات لمحاضرة معينة، أو فترات من الوقت: كشهور السنة **(27)**.

- يشير إلى التوافق مع القانون أو حالة استتباب الأمن: أي المحافظة على الهدوء العام في الجماعة المحلية. كما يشير إلى مجموعة من الأشياء أو الأشخاص نظمت في أماكن معينة مثل الضباط **(28)**، وهناك من يعتبر أن النظام هو قانون السماء الأول.

ليس من السهل تطبيق هذا القانون على المجتمع، فلا يعقل أن يكون الأفراد في المجتمع مثل مجموعات الكتب المنتظمة في المكتبة... هنا يكمن الفرق بين تحقيق النظام بين الأشياء المادية وتحقيق النظام الاجتماعي بين بني البشر. إنه الفرق بين الجماد وغير الجماد، بين الطبيعة والإنسان، بين الحياة والموت، ولكي تتضح صورة النظام العام لا بد من البحث في عناصره:

2-عناصر النظام الاجتماعي العام:

يحصر "فردريك لملى" (F. Lumley) عناصر النظام الاجتماعي العام في ثلاثة عناصر رئيسية هي:

أ- **الترتيب:** جوهر الترتيب هو الصف أو الخطوط المستقيمة، إذا كنا نستطيع أن نربط الخطوط المستقيمة مع بعضها لنُكوّن مثلثات أو مربعات أو دوائر فتكوّن منها توليفات لا نهائية. فإنّ الحياة الاجتماعية تكشف عن قدر من الترتيب وإن كان لا يأخذ دائما شكل الخطوط المستقيمة. ويظهر الترتيب في الحياة الاجتماعية في دور العبادة والمسارح وفي فصول الدراسة وقاعات المحاكم وحول موائد الطعام **(28)** ...وباختصار؛ فإن الحياة الاجتماعية تكشف عن ترتيب في المكان والزمان والحركة.

ب-**العلاقة:** يوجد عنصر جوهري لابد منه لتحقيق النظام الاجتماعي وهو العلاقة بين الوحدات والجماعات (المكونة للنظام)، فهذه الجماعات والوحدات تتدخل وتترابط، ويؤثر كل منها على الآخر، إنه نسيج أُحكم صنعه يضفي على الحياة الاجتماعية قدرا كبيرا من الوحدة والترابط، ونحن نلمس هذا الترابط في حياتنا اليومية، فما نفعله أو نفشل في فعله يؤثر على الآخرين، وينعكس هذا الترابط في خفقان القلب أو في حالات الانتصار أو الفشل **(29)**. **فالإنسان يؤثر على الآخرين ويتأثر بهم.**

ج- **الثبات والاستقرار:** عندما تستمر العلاقات المنظمة بين الوحدات أو الجماعات عبر الوقت؛ فإنها تكتسب صفة الثبات أو الاستقرار...فالنظم الاجتماعية التي نألفها جميعا هي نظم ثابتة وراسخة، ومستقرة ولا تتغير بسهولة ولا تنهار بسهولة أيضا، إنها مستمرة أزلا. هذا الثبات والاستمرار اللذان تتسم بهما الحياة الاجتماعية يُمكّننا من التنبؤ بالظروف الاجتماعية **(29)**.

ويتفق "بيرسي كوهن" (P. Cohen) مع "لملى" في تعريفه للنظام الاجتماعي العام الاجتماعي. فهو وإن أضاف عناصر أخرى، إلا أن هذه العناصر من طبيعة واحدة ويقدم لنا تعريفا للمفهوم لا يختلف عن التعريف السابق، فالنظام الاجتماعي العام عند كوهن له جوانب عديدة، ينحصر الأول في **عملية الكبح** ويعني ضبط عملية العنف في الحياة الاجتماعية، أما الجانب الثاني؛ فإنه يشير إلى وجود **التبادل** في الحياة الاجتماعية. أما الجانب الثالث؛ فإنه يرتبط **بالقابلية للتنبؤ** في الحياة الاجتماعية، فسلوك الأفراد لا يتصف بصفة الاجتماعية إلا إذا كوّنوا توقعات متبادلة عن سلوك بعضهم بعض. والجانب الرابع يشير إلى وجود **الاتساق** في الحياة الاجتماعية، فما دامت التوقعات قد تحققت؛ فإن سلوك الأفراد سيكون متسقا إلى حد كبير؛ أما الجانب الخامس من جوانب النظام العام؛ فإنه يشير إلى وجود **الاستمرار** في الحياة الاجتماعية (30).

ويرتبط مفهوم النظام الاجتماعي العام بجانب آخر من الحياة الاجتماعية يُعبر عنه بمفهوم الترابط الاجتماعي وهو يشير إلى المواقف التي يرتبط فيها الأفراد بعضهم ببعض من خلال التزامات ثقافية واجتماعية مشتركة. فالجماعة تخلق من القوى ما يشد

الأفراد الى الارتباط بها والمحافظة على عضويتهم داخليا، من هذه القوى التزام الأفراد بالمعايير العامة والقيم، والاعتماد المتبادل الذي تفرضه المصلحة المشتركة وتُوّحد الفرد مع الجماعة (30).

3-توماس هوبزوصياغة المشكلة:

عاش هوبز حتى قرب نهاية القرن السابع عشر (1588-1679) وتأثر بظروف الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي في عصره الذي جاء على إثر حروب أهلية في إنجلترا. فجاءت أفكاره عن المجتمع أو الطبيعة البشرية متأثرة بهذه الظروف، بالحياة الاجتماعية هي حالة حرب يدخل فيها الكل ضد الكل، فالإنسان تتملكه غريزة واحدة هي غريزة (34) المحافظة على حياته، وهذه الغريزة تدفعه إلى الكفاح طوال حياته، فيظل مكافحا حتى يموت. وغريزة البقاء تجعله يبحث عن الوسائل التي تضمن له الأمان، وفي سبيل بحثه عن الأمان يلجأ إلى وسائل القوة، ولا يهتم إلاّ بتوفر الطمأنينة لنفسه...ولهذا فالحياة(حسبه) هي حالة حرب مستمرة بين الأفراد، فالفرد يسعى إلى الحصول على كل ما يشعر أنه في حاجة إليه دون أن يعبأ برغبات الآخرين أو احتياجاتهم، وهذا ما يؤدي إلى تشابك الناس واحتدام الصراع بينهم.

في ظل وجود هذه الحالة من الحرب تظهر مشكلة النظام في المجتمع ولا بد من وجود قوة تضمن للمجتمع قدرا كبيرا من النظام والاستمرار. ورأى هوبز أن هذه القوة يجب أن تكون "الدولة" التي يخضع لها الأفراد خضوعا مطلقا. فنظرية هوبز تقوم على التقابل بين الطبيعة البشرية القائمة على الغرائز والحرب والتي تضع أمام الأفراد معضلة تحقيق النظام العام، وبين العقل المهذب الذي يخلق الحل لهذه المشكلة، والحل عند هوبز هو القوة القهرية التي تمارسها الدولة على الأفراد، ولكي يكسب القوة القهرية قدرا من الشرعية لجأ إلى نظرية العقد الاجتماعي، فالمجتمع ينشأ نتيجة عقد يبرم بين الأفراد، وبموجب هذا العقد يتنازلون عن جميع حقوقهم ويتعهدون بالخضوع إلى شخص واحد أو لعدة أشخاص يمثلون الحاكم (35).

4-نظرية علم الاجتماع ومشكلة النظام الاجتماعي العام:

يجمع المفكرون السوسيولوجيون على أن نظريات علم الاجتماع جاءت كلها عبر تطورها الطويل كرد فعل لمشكلة النظام في المجتمع (37). والقول بأن علم الاجتماع قد ظهر وتطور كرد فعل لمشكلة النظام يجعلنا نستشعر تلك العلاقة الوثيقة بين الواقع الاجتماعي والنظريات التي تفسره، فكل نظرة هي انعكاس لواقع اجتماعي معين مهما كانت درجة التجديد في هذه النظرية. ولكن ارتباط النظرية بمشكلة النظام لا تجعل النظرية انعكاسا لواقع اجتماعي فحسب؛ ولكنها انعكاس لواقع مفكك أو حتى مجموعة من الأفكار التي تفسر هذا الواقع على أنه يعيش حالة صراع أبدي. وهذه العلاقة تجعلنا نستشعر علاقة خفية بين نظريات علم الاجتماع والأيديولوجية. فالنظريات التي تنظر الى الواقع الاجتماعي من مفهوم النظام العام لا بد وان تكون نظريات ذات نزعة محافظة تتصور عناصر الواقع الاجتماعي في تكامل مستمر تضفي عليه طابع الاستقرار والثبات.

ولعل هذا هو الذي دفع "روبرت نيسبت" إلى أن يعتبر أن مفاهيم الجماعة والسلطة والمكانة والاغتراب هي المفاهيم أو الأفكار الرئيسية في علم الاجتماع. بل أن فضل أن يتخذ هذه الأفكار أو المفاهيم مدخلا لدراسة التراث السوسيولوجي. ان هذه الأفكار والمفاهيم لها صفة العمومية والاستمرار والتميز داخل علم الاجتماع كما أنها خلقت (38) قضايا أو مفاهيم مضادة ففي مقابل الجماعة ظهر مفهوم المجتمع. وفي مقابل مفهوم السلطة ظهر مفهوم القوة، وفي مقابل مفهوم المكانة ظهر مفهوم الطبقة، وفي مقابل مفهوم المجتمع المقدس ظهر مفهوم المجتمع العلماني؛ أما مفهوم الاغتراب فيرتبط بمفهوم التقدم وهذا التضاد بين المفاهيم يعكس تضادا معرفيا بين ثلاثة ايديولوجيات سادت القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الليبرالية والراديكالية والنزعة المحافظة وهي ايديولوجيات شكلتها الظروف والتي أحيت مشكلة النظام التي أثارها هوبز ؛ وبالتالي شكلت كل الفكر السوسيولوجي في القرن التاسع عشر وحتى اليوم (39).

أ.د / عزوزعبد الناصر